عمران للدراسات الاستراتيجية
OMRAN For Strategic Studies

تقدير موقف: 2015/6/10

معارك ريف حلب الشمالي ضد تنظيم الدولة

ملخص-- أحدث هجوم تنظيم الدولة الأخير على مناطق الثوار في ريف حلب الشمالي والسيطرة على عقدة صوران وعدة قرى حولها خلال تقدم جيش الفتح على مواقع النظام في إدلب، أوسع موجة ردود أفعال ضد التنظيم وتدعو لقتاله، نظريّاً على مستوى المواقف المعلنة من قبل المنظّرين الجهاديين، أو ميدانيّاً على مستوى ردة فعل الفصائل الثورية والجهادية .وبات التنظيم في هذا الهجوم في أقرب مواقعه لمدينة اعزاز ومعبر باب السلامة الحدودي، ما دفع لقدوم مؤازرات ضخمة من فصائل حلب وإدلب لمنع تقدمه ومحاولة استعادة المناطق التي احتلّها، ولكن تأخير الحسم والتقدم دفع التنظيم للتثبيت في مواقعه حوالي صوران ومحاولة التقدم من خلال الخواصر الرخوة في سعيه للسيطرة على مدرسة المشاة ذات الأهمية الرمزية والاستراتيجية. ومع عدم امتلاك الفصائل الثورية لخطة استراتيجية طويلة الأمد لمواجهة التنظيم، أو للتنسيق ضمن غرفة عمليات مشابهة لجيش الفتح، أو اعتبار الجبهة مع التنظيم معركة مفتوحة وذات أولوية، فإن الاكتفاء بردود الفعل والمؤازرات المؤقتة يبدو من صالح التنظيم ومن صالح النظام معاً، حيث يستغل الطرفان تشتت جبهات فصائل الثورة في حلب واستنزافها الطويل.

أ. أحمد أبازيد

قام تنظيم الدولة في يوم 31 أيار 2015م بتمدده الرابع في ريف حلب بالهجوم على بلدة صوران اعزاز عن طريق مفخختين تبعها الاقتحام والسيطرة عليها وعلى عدة قرى حولها، وأعلنت فصائل الثورة السورية في حلب أن هذا الاقتحام الذي سبق بيومين موعد معركة "فتح حلب"، قد أوقف المعركة على مناطق سيطرة النظام في المدينة، والتي بدأت التجهيزات لها مع إعلان غرفة عمليات فتح حلب في 26 أبريل 2015م. كما تقتضي الضرورة مقاربة هذا الهجوم ضمن سياق التقدم المستمر لغرفة عمليات "بركان الفرات" (التي تجمع الأحزاب الكردية مع نسبة صغيرة من فصائل الجيش الحر) على مناطق سيطرة التنظيم في ريف الحسكة والرقة وحلب في المنطقة المحاذية للحدود التركية خاصة، ومع احتمالات قرب سيطرة بركان الفرات على تلّ أبيض، مما يدفع التنظيم للبحث عن متنفّسات حدودية أخرى مع تركيا، الأمر الذي قد يكون أقلّ تكلفة في مناطق الثوار بسبب عدم المساندة الجوية الحقيقية من التحالف الدولي لهم، على عكس المواجهة مع الأحزاب الكردية، والتي تفسّر الانسحابات السريعة من المعارك فيما بعد كوباني التي خسر فيها التنظيم ما لا يقلّ عن ألفي مقاتل.

جميع الحقوق محفوظة © مركز عمران للدراسات الاستراتيجية

التمدد الرابع

كان تمدد التنظيم الأول كسيطرة مكانية مطلقة في محافظة حلب في بلدة مسكنة في ريف حلب الشرقي (كانون أول 2013م) حين انسحبت حركة أحرار الشام من المدينة بعد اشتباكات مع التنظيم داخلها، انتهت بالمقتل التراجيدي للقيادي في الحركة الطبيب نبيل السليمان (أبو ريان) تحت التعذيب في سجون التنظيم، والذي كانت جثته المشوهة أحد الأسباب الرئيسة لقيام الحرب الموسعة ضده بعد أيام من ظهورها.

أما التمدد الثاني والأهم فقد نتج عنه سيطرة التنظيم على (منبج، الباب، جرابلس) في ريف حلب الشرقي (أواخر كانون الثاني 2014م) مع بلدة الراعي التي تعتبر عقدة طرق وبوابة للريف الشمالي (3 شباط 2014م) وكانت هذه البلدات مع محافظة الرقة المنطقة التي استطاع التنظيم السيطرة المطلقة عليها بعد الحرب الموسعة معه (3 كانون الثاني 2014م) والتي طردته من ريف حلب وريف إدلب ومعظم مقراته في الشمال، وتم تثبيتها كخطوط رباط هادئة حتى هلال شهور الحرب العنيفة في دير الزور (شباط – تموز 2014م) والتي انتهت بسيطرة التنظيم على كامل محافظة دير الزور فيما عدا مناطق النظام (14 تموز 2014م).

أما التمدد الثالث فقد كان بعد تأمين العمق الكافي في المنطقة الشرقية، حين اقتحم التنظيم ريف حلب الشمالي وسيطر على 11 قرية (أخترين، تركمان بارح، احتيملات، دابق،... الخ) خلال ساعات (فجر 18 آب 2014م) وكان أهمها سيطرته على أخترين التي تشكل عقدة طرق لكل ما حولها، وقامت وقتها غرفة عمليات نهروان الشام التي جمعت مؤازرات من عدد كبير من الفصائل، ولكن دون أن تنجح في استعادة المواقع الرئيسة التي احتلّها التنظيم، والذي أصبح في عمق الريف الشمالي وتصبح بلدة مارع ذات الأهمية الرمزية والاستراتيجية خط رباط معه(مركز البلدة على بعد 4 كم فقط من قرية السنبل أول مواقع التنظيم)، إضافة لقربه من مدينة اعزاز ومعبر باب السلامة الحدودي مع تركيا الذي سبق أن حاول السيطرة عليه حين أعلن الحرب على لواء عاصفة الشمال (تشرين الأول 2013م)، وكالتمدد الأول تحولت جبهة تنظيم الدولة إلى خطوط رباط هادئة رغم إرسال التنظيم العديد من المفخخات إلى مناطق الثوار واستمراره في القصف المدفعي والصاروخي لهذه المناطق.

إلى أن قام بالتمدد الرابع الراهن الذي سيطر فيه على بلدة صوران وعدة قرى حولها (الطوقلي، البل، أم القرى، أم حوش...)، ليصبح أقرب من أي وقت مضى إلى اعزاز (15 كم من صوران) وتهديد الريف الشمالي ككل، وإلى السيطرة على معبر باب السلامة الحدودي مع تركيا (11كم من قرية البل).

جميع الحقوق محفوظة © مركز عمران للدراسات الاستراتيجية

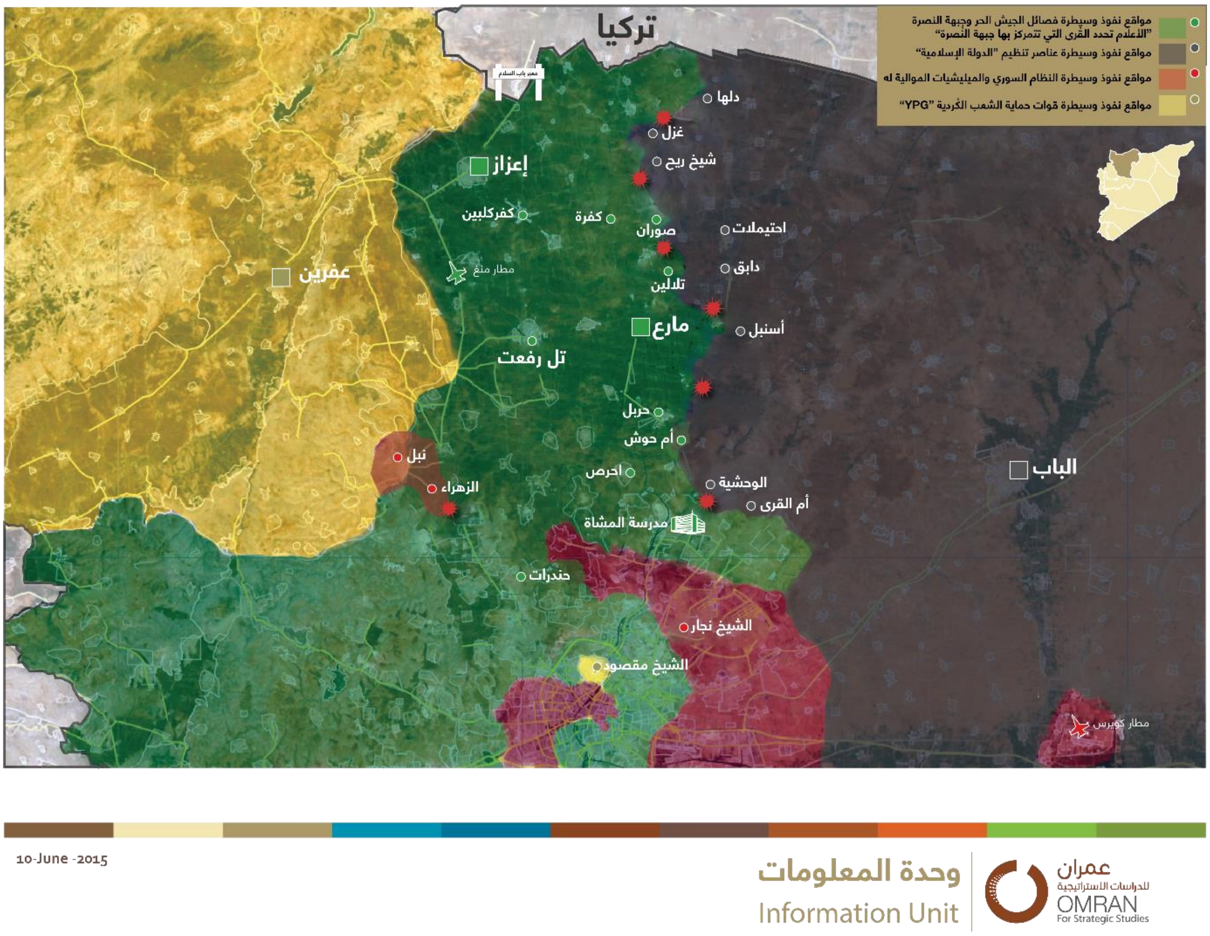

جبهة الرباط بين تنظيم الدولة والثوار حتى تاريخ 10 حزيران /يونيو 2015 (المصدر وحدة المعلومات في مركز عمران)

خطوط الرباط ما بين الثوار والنظام وتنظيم الدولة

تبلغ خطوط الرباط ما بين مناطق تنظيم الدولة ومناطق الثوار قرابة 60 كم (من حرجلة شمالاً وحتى الوحشية جنوباً)، وخطوط الرباط ما بين مناطق التنظيم ومناطق النظام في محافظة حلب وحدها (من قرية المقبلة شمالاً إلى خناصر جنوباً) قرابة 130 كم.

وتعتبر جبهات (حوار كلس، مارع، مدرسة المشاة) من الشمال للجنوب، هي أكثر الجهات اشتعالاً ما بين تنظيم الدولة ومناطق الثوار، خلال الفترة السابقة منذ التمدد الثالث (عقدة أخترين)، كما أنها تعتبر أهدافاً يطمح التنظيم للسيطرة عليها حتى الآن (اعزاز، مارع، مدرسة المشاة)، وتتركز هجمات الثوار الآن على (بلدة صوران اعزاز وقرية البل وقرية اسنبل والوحشية) من الشمال للجنوب، حيث تعتبر صوران اعزاز الجهة الأكبر.

جميع الحقوق محفوظة © مركز عمران للدراسات الاستراتيجية

بينما يغلب الهدوء على جبهات تنظيم الدولة مع النظام، حتى أن كثيراً من نقاط الرباط بينهما خالية حسب صور طائرات الاستطلاع، عدا عن تسهيل التنظيم لمرور النظام وحصاره مناطق الثوار في حلب، منذ الانسحاب المفاجئ من قرية شامر (على الطريق ما بين مدينة الباب ومدينة حلب) والذي تبعه دخول رتل النظام منها نحو الشيخ نجار في نيسان 2014م، ولا نفضّل هنا رواية التنسيق المشترك أو سرديات المؤامرة، بقدر ما أن التركيز لدى الطرفين في حلب هو على إضعاف فصائل الثوار كعدوّ مشترك، ما يفرض تقاطع المصالح والتحالف الموضوعي مرحليّاً.

أما الخريطة ما بين النظام وفصائل الثوار فهي الأكثر تعقيداً وتداخلاً وكثافةً في التحصينات العسكرية وخطوط المواجهة، ورغم تقدم الثوار المحدود في بعض جهات المدينة أو الريف، واستمرار المعارك والاشتباكات على طول خطوط الرباط خاصة في طوق حلب (الشيخ نجار، حندرات، البريج، طريق الكاستيلو...) إلا أن الخارطة في خطوطها العامة بقيت شبه ثابتة مع شبه توازن في القوة والاستنزاف ما بين الطرفين، مع وضوح ذلك أكثر في معسكر النظام، حيث اعتمد في معاركه الاقتحامية الأخيرة، والتي فشلت جميعاً، إما على المقاتلين الأفغان الشيعة، وإما على عساكر الاحتياط والمجندين حديثاً، وكلاهما مقاتل غير نوعي. ولكن طول خطوط الرباط والاستنزاف الطويل لفصائل الثورة في حلب، إضافة إلى وجود تنظيم كتهديد دائم، وعدم التوحد على تشكيل عسكري أو غرفة عمليات موحدة، منع من استغلال تقهقر قوة النظام كما حصل في تجربة جيش الفتح في إدلب.

نتائج موازية في الفضاء الجهادي

أدت تجربة جيش الفتح في إدلب، والانتصارات الدراماتيكية (من خلاله ومن خلال غرفة عمليات معركة النصر)، منذ إعلانه في 24 آذار وحتى تحرير آخر نقاط النظام في محافظة إدلب في 6 حزيران الراهن (فيما عدا بلدتي كفريا والفوعة ومطار أبو الضهور)، إلى إحياء الأمل في إمكانية إسقاط النظام عسكريّاً، وإلى ترميم الفجوة ما بين الفصائل الثورية والجهادية، على المستوى الميداني المباشر، أو على مستوى الجمهور الجهادي العام من خلال شرعية قتال النظام، الأمر الذي أدى إلى موجة إنكار عام حين هاجم تنظيم الدولة مناطق ريف حلب الشمالي، ما اعتُبر "طعنة" في هذه الانتصارات، و "مساعدة" صريحة للنظام، حسب هذا الخطاب المناوئ، والذي وصل إلى هذه اللهجة والتعميم للمرة الأولى منذ الحرب مع التنظيم بداية 2014م.

وشمل هذا التوجه منظّرين جهاديين كانوا يبحثون عن لهجة أهدأ للمصالحة بين أبناء التيار السلفي الجهادي، مثل المقدسي الذي كان قد صرّح قبل أيام من الهجوم أنه "شيخهم الذي علّمهم التوحيد"، والذي أصدر فتوى مشتركة (وقّع عليها أيضاً: أبو قتادة الفلسطيني والدكتور سامي العريدي) أفتى فيها بقتال التنظيم تحت عنوان "دفع الصائل"، وهو ما أثار موجة استياء ورفض من قبل منظّرين جهاديين طالما اعتبروا قتال التنظيم يندرج تحت عنوان " قتال الخوارج"، ما ينبني عليه فوارق في طبيعة القتال ودرجته وحدوده حسب المنظومة الفقهية المعتمدة. وللمرة الأولى تصدّر رفض فتوى المقدسي، التي اعتُبرت أقلّ من السقف، قيادات ومنظّرون محسوبون على جبهة النصرة (خاصة فرع المنطقة الشرقية) التي طالما حُسب المقدسي كمرجع شرعي لها، مثل أبو ماريا القحطاني ود. مظهر الويس وأس الصراع وغيرهم.

جميع الحقوق محفوظة © مركز عمران للدراسات الاستراتيجية

وعلى المستوى الميداني، فقد أصدرت عدة فصائل طالما التزمت بشعار "اعتزال الفتنة"، بيانات تصرّح بتجريم التنظيم، وبإعلان قتاله، مثل حركة فجر الشام الإسلامية (يرأسها الدكتور أبو عبد الله الشامي)، والمحسوبة على التيار السلفي الجهادي، ومثل كتائب أبو عمارة في مدينة حلب، والتي أصدرت بياناً يجرّم التنظيم وعدوانه على الريف الشمالي دون إعلان قتاله. وأمّا على مستوى المنظّرين والجماعات، فقد فجر هجوم التنظيم على الريف الشمالي لحلب في وقت تقدمّت فيه الفصائل الثورية والجهادية في محافظة إدلب، وأثناء تجهيز الثوار لمعركة "فتح حلب"، العداوات المتراكمة وأظهر حجم التحوّل في القطيعة مع التنظيم في الوسط الجهادي عامة.

الاحتمالات المعلّقة في الريف الشمالي

يتزايد عدد قتلى التنظيم كل يوم في معارك الريف الشمالي، وبلغ حتى كتابة هذه الورقة قرابة خمسين قتيلاً، قضى أغلبهم في الهجوم الفاشل من قرية البل على قرية الشيخ ريح حيث ترابط حركة أحرار الشام (5 حزيران). ومنذ اليوم الثاني للسيطرة على صوران وقدوم مؤازرات الفصائل، أدرك التنظيم صعوبة التقدم أكثر في الريف الشمالي، فانتقل للتثبيت في مواقعه وتحصينها، هادفاً لتحويل الجبهة إلى خط رباط، وانتظار تراجع المؤازرات للاقتحام من جديد، كما فعل لدى سيطرته على عقدة أخترين وما حولها.

إلا أن تثبيت المواقع هذا لا يعني الانتقال الكلي عن الهجوم، حيث لا زال التنظيم يحاول التقدم من خلال الخواصر الأضعف، والتي تشتت اتصال مواقع الثوار، وربما تكون مدرسة المشاة أحد أهدافه المفضلة بسبب رمزيتها وأهميتها الاستراتيجية، وضعف خطوطها الدفاعية مقارنة بمارع واعزاز، عدا عن أن ظهره سيكون شبه آمن من خلالها، بسبب اتصالها بمواقع النظام لا الثوار.

ورغم ضخامة حجم المؤازرات والتعزيزات التي أرسلتها الفصائل في حلب نحو جبهة تنظيم الدولة في الريف الشمالي، سواء من فصائل الريف الشمالي نفسها كالجبهة الشامية ولواء الفتح والفوج الأول، أو من فصائل المدينة والريف الغربي مثل تجمع فاستقم وكتائب ثوار الشام، عدا عن المؤازرات التي وصلت من إدلب، خاصة من حركة أحرار الشام التي أرسلت أعداداً كبيرة وشارك قائدها العام (أبو جابر) وقائدها العسكري (أبو صالح طحّان) وشرعيّها العام (أبو محمد الصادق) في المعارك ضد التنظيم، إضافة لجيش الإسلام الذي أعلن قبل قرابة العام عن تشكيل "جيش علي بن أبي طالب" المخصص لقتال التنظيم، هذا مقارنة بعدد أقلّ اعتمد عليه التنظيم في هجومه الذي استفاد فيه من المفخخات والانغماسيين، ثم من التلغيم والتحصين السريع في التثبيت، فإنه يمكن رصد عدة احتمالات للجبهة:

أولاً: تأخر الحسم أو التقدم في مثلث (صوران-البل-التوقلي)، وتثبيت الجبهة كخط رباط. ويمكن في هذه الحالة أن يخفض عدد المقاتلين من غير أبناء المنطقة مما يُضعف خطوط الرباط وما يترك ثغرة سريعة لتسلل التنظيم، وهذه هزيمة آنية ومعنوية للثوار رغم خسائر التنظيم المادية والبشرية، ويحوّل جبهة الريف الشمالي إلى جبهة استنزاف طويلة الأمد، مع احتمال استغلال النظام للجبهة للضغط على الجبهة ما بين باشكوي وبلدتي نبل والزهراء.

جميع الحقوق محفوظة © مركز عمران للدراسات الاستراتيجية

ثانياً: الاكتفاء باستعادة صوران ثم تثبيت خطوط الرباط من جديد في انتظار اقتحام آخر للتنظيم. ويعد هذا الخيار هزيمة استراتيجية للثوار رغم تحقيقه لانتصار معنوي، لأنه يعيد تحويل الجبهة إلى جبهة استنزاف طويلة ومشتتة، مما يزيد من قوة الهجوم الانتقامي من التنظيم على خسارتها.

ثالثاً: نجاح التنظيم في التقدم حتى مدرسة المشاة، وهذا سيكون هزيمة رمزية ومعنوية كبيرة لفصائل الثوار، عدا عن فقدان قطعة عسكرية ذات أهمية استراتيجية، ويمكن لهذا الاحتمال أن ينقل ثقل المؤازرات جنوباً، ويضعف الجبهات الشمالية (صوران، الشيخ ريح، حوار كلس)، عدا عن قطع طريق الإمداد (ليس الوحيد) ما بين الريف الشمالي والمدينة، ما سيعيد توزيع القوات والفصائل ويحدث إرباكاً على مستوى الشمال السوري، ما سيعطي إمكانية أكبر للنظام والتنظيم باختراق ثغرات الفوضى في مناطق الثوار.

رابعاً: تحوّل المعركة مع تنظيم الدولة في حلب إلى جبهة مفتوحة لا تعتمد على المؤازرات الإسعافية، وإنما كجبهة مثبتة في الخطة والمهامّ لدى جميع الفصائل كخطوط الاشتباك مع النظام، مع وضع خطة "تحرير" موازية للمناطق التي يسيطر عليها التنظيم، تبدأ بإعادتها إلى ما قبل الراعي كهدف استراتيجي مرحلي، يحصر نقاط الهجوم المحتملة للتنظيم، مع مواجهة باقي الأهداف الاستراتيجية نحو ريف حلب الشرقي وما بعدها عقبة التفاهم مع الأحزاب الكردية، وهو ما يمكن أن تعقّده انتهاكات هذه الأحزاب ضد القرى العربية، وتزايد وضوح نبرتها وسلوكها باتجاه التقسيم.

خاتمة

يتمدد التنظيم في محافظة حلب عبر فترات متباعدة، مستخدماً تكتيك الهجوم المباغت ثم التثبيت في مواقعه وهدوء الجبهة ثم الهجوم من جديد، ونجح خلال أربع مراحل من تمدده في المحافظة في الحفاظ على مكتسباته والتمدد في مناطق الثوار الذين يكتفون بردّ الفعل، ولم يتبنّوا استراتيجية مواجهة للتنظيم طويلة الأمد، واعتمدوا على جبهات الرباط والصدّ والمؤازرات المؤقتة لا على المعارك المفتوحة.

ويحاول التنظيم إضعاف فصائل الثورة في الشمال السوري، وقطع الطريق على الاستفادة من انتصاراتها في محافظة إدلب، أو تقدمّها في محافظة حلب، ورغم المؤازرات الضخمة التي أرسلتها حركة أحرار الشام نحور ريف حلب الشمالي (وهي المكوّن الأكبر في جيش الفتح) فإن تقدّم جيش الفتح استمرّ حتى السيطرة على كامل محور (المسطومة –جسر الشغور) في 6 حزيران الراهن، فيما عدا قرية فريكة. كما أن تراجع التنظيم المستمر أمام الأحزاب الكردية الذين يساندهم التحالف الدولي وخسارته مسافات واسعة من الشريط الحدودي مع تركيا، تدفعه للبحث عن متنفّس حدودي آخر في معبر باب السلامة الذي يسيطر عليه الثوار.

جميع الحقوق محفوظة © مركز عمران للدراسات الاستراتيجية

ورغم استفادة التنظيم من هيمنته على الخطاب الجهادي وقدرته على الاختراق الفكري لطيف واسع من المقاتلين في الفصائل الثورية والجهادية المناوئة له، فلقد لوحظ تراجع الأرضية المشتركة بشكل كبير طيلة الفترة السابقة، وكان الهجوم الأخير على الريف الشمالي في حلب خلال انتصارات الثوار في محافظة إدلب نقطة تحوّل جذري في المواقف المعلنة ضد التنظيم بين المنظّرين والجماعات في الوسط السلفي الجهادي. وعلى رغم أن التنظيم لم يحشد أعداداً ضخمة لهذه المعركة، إلا أنه استفاد من الاستنزاف الطويل لفصائل حلب طيلة عامين سابقين، ومن ضعف التنسيق فيما بينها، إضافة إلى طول وتعقيد خطوط رباطها واشتباكها مع النظام، ولم تسمح له المؤازرات الضخمة من فصائل الثورة بالاستمرار في التقدم نحو مارع واعزاز، ما دفعه للتثبيت في مواقعه، ومحاولة التقدم في الخواصر الرخوة، خاصة اتجاه مدرسة المشاة التي ستكون نقطة تحول في المعركة لو سيطر عليها التنظيم.

وتتعدد خيارات فصائل الثورة المحاصرة ما بين تنظيم داعش ونظام الأسد وقدراتها المستنزفة، إلا أن تثبيت الجبهة مع داعش كخط رباط من جديد، سيسمح باستنزاف مضاعف لهذه الفصائل، ويمنعها من استغلال مرحلة تقهقر النظام أو تراجع داعش أمام الأحزاب الكردية، ما لم تعتبر المعركة مع داعش جبهة مفتوحة وذات أولوية لجميع الفصائل، مع وضع خطة استراتيجية لمواجهة التنظيم هدفها المرحلي إعادة التنظيم إلى ما قبل الراعي.

جميع الحقوق محفوظة © مركز عمران للدراسات الاستراتيجية